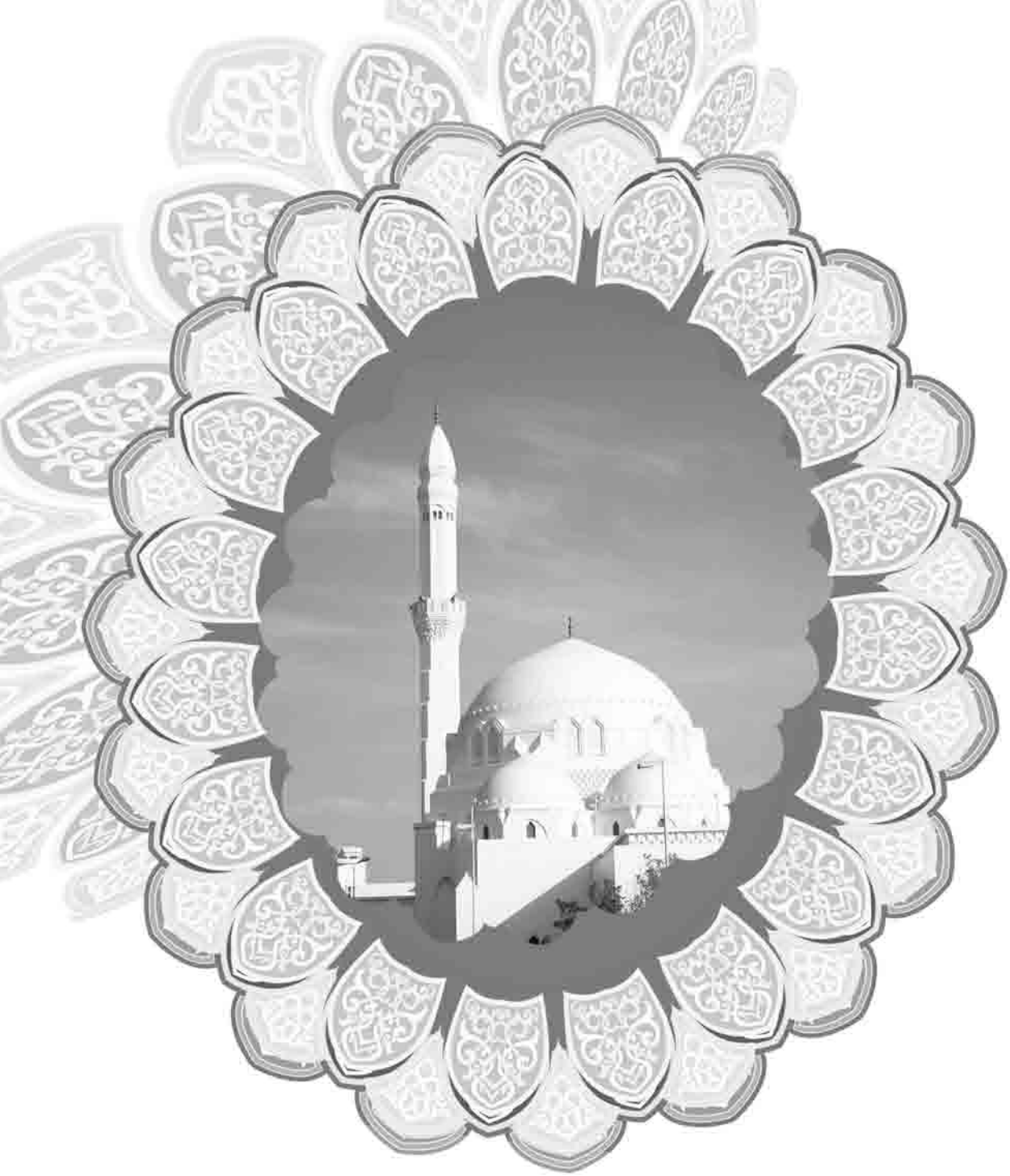

الوحدة، قواعد ومعالم

سعيد المهاجر

قبل أن استعرض عدداً من القواعد التي أنشئ عليها مبدأ الوحدة في الإســـلام، لكي انتقل بعدها إلى ذكر معالم مهمة من معالم أعظم شـــعيرة عبادية إســـلامية توفرت على البعدين المادي والمعنوي، ألا وهي فريضة الحج كمثال وحدوي عملـــي.. وفضيلة هذه الفريضة وعظمتها لم يختلف عليها اثنان من المؤمنين، لما تتركه من ثمار ومنافع في حياتنا الدينيـــة والدنيوية ولما أعدالله تعالى لمؤديها الأداء الأوفى من الأجر الجزيل والثواب الكبير..

فقبـــل أن أقف عند قواعد الوحدة التي يحبهاالله تعالى ورســـوله الكريمﷺ والصالحون، وذكر المعالم، أذكر ســـطوراً عن عالم ما قبل البعثة، لأدخل مباشـــرة فيما أعدت الســـماء ورسولها المصطفى من أسس وأعمدة ومعالم لبناء وحدة الأمة المسلمة.

عالم مـــا قبل البعثـــة كان يتمثل في أمة جاهليـــة فرقتها الحروب ومزقتها النزاعات وشـــتتتها العصبيات القبلية والعنصرية، وظلت سنين طويلة بين طغاة ومستضعفين، وبين ظالمين ومظلومين، وسادة وعبيد.. تطيح بهم حروب وغارات وغزوات وثارات مدمرة أنتجت اختلافاً قاتلاً وتمزقاً مخيفاً ونزاعـــاً دامياً أربك وضعهم الاجتماعي بكل مفاصله..

وفي عالم هكذا مظاهره وفي أمة هذه حياتها وهذه مسيرتها، شاءالله سبحانه وتعالى أن يبعث محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله رسولاً.. وسراجاً:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾(١).

ورحمة:

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾.

وجاءت بعثته نعمة ومنقذة أنعم الله بهما على البشرية:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

فتحولوا من أعداء متحاربين إلى إخوان متحابين، ومن قبائل متفرقين إلى صفوف متراصّين ضد أعدائهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾(٣).

وهنا تتجلى عبقرية الرسول صلى الله عليه وآله في إنقاذ هذه الأمة وتحويلها من أمة ممزقة إلى أمة موحدة تمهيداً لوحدة الإنسانية عبر إرسائه لقواعد توحيدهم بعد هدايتهم..

إن رسالة الإسلام الخالدة التي جاء بها نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله كانت رسالة رحمة ونعمة وإنقاذ وهداية لا لأهل مكة وما حواها، ولا للأمة التي عاشت زمن الرسالة السماوية، بل جاءت لكل الأمم والشعوب وفي كل الأزمنة، وراحت تؤدي مهمتها هذه من خلال

مسارين:

ـ تخليص الأمة من العبادة المنحرفة من الكفر والشـــرك المتمثلة في عبادة الأصنام والأوثان.. هذه العبادة التي هي السبب في فرقتهم وتشتتهم.. ونقلها نقلة كبرى إلى عبادة الواحد الأحد، عبادةالله تعالى دون غيره، عبادة التوحيد الخالصة.. لتكون أمة حرة عزيزة أبية عصيّة على أعدائها..

ـ بذل الجهود الكبيرة لإنقاذها من كل مظاهر الفرقة والتشـــتت والاختـــلاف، ثم تقويتها لتقف شـــامخة عالية صامـــدة أمام ما يحاك ضدها من مؤامرات ومخططات سيئة، غايتها تقويض أركانها وأسس تماسكها للإطاحة بها..

كل هذا انطلاقاً من قاعدة التخلية ثم التحلية، تخليتها من أسباب الانحراف والنزاع والتخاصم ثم تحليتها عبر بنائها البناء المتين على أسس ثابتة رصينة..

وبما أن الوحدة هي الإطار الحامي للأمة، فقد راح رســـولالله ﷺ يرسي دعائم الوحدة، يرسيها على قواعد صلبة وأرض متينة.. وكان توحيـــد العبادة عبـــادةالله تعالى وحده هو الأســـاس الأول والهدف الذي يصبو إليه رسولالله ﷺ كما غيره من الرسل والأنبياء الذين ســـبقوه.. والقاعدة هي التوحيد بمعناه الروحي والعقدي والفكري، فالتوحيـــد أي توحيدالله كان الأســـاس الأول لبناء الوحدة في الأمة والأمـــة الواحدة، فلا وحدة بدون توحيـــد ولا توحيد بدون توحد ووحـــدة، فإذا وحدت الأمـــة ربها توحدت واتحـــدت، وإذا كفرت

وأشركت تفرقت واختلفت، فالأخوة صنو الإيمان:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٤).

والتفرق والاختلاف أخو الكفر:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ﴾(٥).

وهكذا نجد أن الإيمان والتوحيد أساس الوحدة، والكفر على عكس ذلك هوعلة الفرقة والتشتت بل هو هما.. إن الاعتصام بحبل الله وتوحيدالله كانا هما الأساس الذي أقام عليه رسول الله ﷺ دعائم الوحدة، وكان الحجر الأساس لبناء هذه الوحدة هو ما دعا إليه ﷺ الناس من الإذعان والخضوع لله موحدين لا مشركين..

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾(٦).

﴿وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٧).

فالناس كلهم أبناء آدم فهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، وهم من أصل واحد، ومن نفس واحدة هذا على مستوى الخلقة والنشأة.

وهم على مستوى العبادة يعبدون خالقهم الذي خلقهم وبارئهم الذي برأهم، وخلق كل ما حولهم وكل شيء دون أن يكون له شريك ومعين..

إن سعادة الأمة ورفعتها لا تكون إلا عن طريق وحدتها والتئام شملها، كما أن شقاءها وتلاشي عظمتها وذهاب ريحها إنما ينشأ عن اختلاف الكلمة وتضارب الأفكار وتباين المقاصد، ومن أجل

هذا أراد الرسول ﷺ من المسلمين أن يقيموا وحدتهم الإسلامية على أساس يجعلهم متحدين متوافقين في كل شيء: في العقيدة والعبادة والاتجاه والمقصد واللغة والوطن والأخلاق والثقافة والزي والعادات والتقاليد والدفاع المشترك والتضامن والتكافل حتى تصبح الأمة يداً واحدة تحقيقًا لقول الرسول:

«المسلمون أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ولم تكن الوحدة التي دعا إليها النبي ﷺ مجرد شعار رفعه ليجمع حوله قبيلته أو قومه أو مجرد نظرية قومية لتحقيق طموحات شخصية، بل كانت عقيدة آمن بها ودعا إليها وأرسى مبادئها بكل الوسائل، وهنا تتجلى عبقريته ﷺ في بناء الوحدة، وإذا أردنا اليوم بناء وحدة إسلامية وإنسانية فلابد من تلمس خطى النبي ﷺ في هذا الاتجاه.

لقد كان التوحيد وإرساء العقيدة الصحيحة هما الأساس الذي أقام عليه النبي ﷺ صرح الوحدة، فوحدة العقيدة هي الحجر الأساس لبناء الوحدة، وهنا كان أول ما دعا إليه النبي ﷺ هي كلمة التوحيد التي يدخل بها الفرد إلى الإسلام ومجتمع المسلمين، فكانت الشهادة هي الرابطة الأولى لجميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم «أشهد أن لا إله إلا الله» فالرب واحد والخالق واحد والمعبود واحد، والمبعوث لهم واحد

«أشهد أن محمداً رسول الله».

والرسالة واحدة

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَاللهِ الإِسْلامُ﴾(٨).

﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٩).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾(١٠).

فلا فرقة ولا تنازع ما دام هناك اعتصام بحبل الله ودين الله.

إذن، فلا تفرق ولا اختلاف أو هكذا ينبغي أو يجب أن يكون حال الأمة المسلمة وهي تحمل هذه المبادئ وتلك القيم والثروة العظيمة من المواقف التي تدعو لوحدتها وتماسكها..

فكيف يتفرقون وكيف يتنازعون وكيف يتقاتلون؟

إن اختلاف الأمة وتفرقها وتناحرها إنما يكون عندما تخبو أنوار التوحيد في نفوس المسلمين، وحينما يتركوا الفكرة الواحدة والعقيدة الواحدة ويرحلوا إلى أفكار متضاربة وطرق مختلفة فتفرق بهم..

لهذا إذا رأينا المسلمين اليوم متفرقين وأشتاتاً متباعدين فرّقتهم الأهواء والشهوات والتعصب البغيض نتألم ويداخلنا الأسى والأسف، لأن هذه الفرقة دليل وهن العقيدة في النفوس وضعف الإيمان في القلوب، كيف لأمة ربها واحد وعقيدتها واحدة، وقبلتها واحدة، ونبيها واحد، أن تختلف؟!

ولم تكن الدعوة إلى وحدة العقيدة هي فقط ما دعا إليه النبي ﷺ فقد بعث ﷺ والعرب يعتزون بعروبتهم إلى درجة التعصب البغيض والتفاخر بالأنساب والأصول، فحارب النبي ﷺ هذه

العصبية، وهذا التحزب؛ لأن التعصب من عوائق الوحدة وأرشد الناس إلى ضرورة عدم السخرية بالآخرين رجالاً ونساءً، ونهاهم عن اللمز والتنابز بالألقاب والظن والتجسس والغيبة، ودعاهم إلى التعارف وكان القرآن هو العلاج الرباني لتلك الأمراض:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواالله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَالله أَتْقاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١١).

وبدأ الرسول بنفسه في تطبيق هذه المبادئ وتلك الأحكام، فصاحب الفقراء وتودّد إليهم وأمر بلالاً الحبشي أن يؤذن في الناس ويدعوهم إلى الصلاة، وقربه منه وولاه شؤون أموال الدولة، وعلى يده تجري الجوائز للوفود من كبار القوم، وأتى بزيد بن حارثة أحد مواليه فضرب به عصبية قومه في الصميم إذ اختاره صهراً له، وزوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش، ثم ولاه قيادة جيش كان فيه الكثير من أكابر الصحابة وأعلام العرب، ثم ولى ابنه أسامة بعده قيادة الجيش، وهو شاب لم يتجاوز العشرين، وهكذا بمثل

هذه الممارسات صهر النبيﷺ الجميع في بوتقة الإسلام ومحضن الإيمان.

ولم يكتف الرسول بهذا، بل عمل على غرس بذور الحب المتبادل في قلوب المسلمين وإحكام روابط الأخوة العامة فيما بينهم، ونهاهم عن كل ما من شأنه أن يولد الضغائن والعداء في النفوس أو يدعو إلى التحاسد.

وجاءت الأحاديث تؤكد هذه المعاني فقالﷺ:

«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ولا يكذبه. حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

ويقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ويقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء».

ويقول: «ألا أخبركم بشراركم؟

قالوا: بلى، قال: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العيب».

إن معنى الوحدة الذي أكدته آيات القرآن وأحاديث النبيﷺ ومارسه النبيﷺ في حياته يبني أمة واحدة متحدة على الفكرة الواحدة والشعيرة الواحدة والقبلة الواحدة والقيادة الواحدة، وحدة بناها على الأساس المتين الذي يجمع ولا يفرق، أساس التوحيد وإخلاص العبودية لله سبحانه وتعالى.

إن هذه الوحدة لهي المخرج مما يعانيه المسلمون اليوم من هوان وذلة، وما تفرق المسلمون اليوم إلا من بعد ما جاءتهم الأفكار الوضعية واتبعوا السبل وترك سبيل الله، فوجهوا سهامهم إلى صدور إخوانهم ونسوا وصية نبيهم في حجة الوداع:

«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ألم يحدث أن تقاتلت دول إسلامية سنين طويلة، واستنزفت قواها ودمرت ثرواتها وخربت اقتصادها؟ ألم يحدث أن كثيراً من المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض؟ إن لم يكن بالسلاح فبالكلمة والطعن والغمز واللمز والغيبة والنميمة والعصبية التي قال عنها النبيﷺ:

«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

وقال عندما رأى بعض أتباعه يتحدثون عنها:

«دعوها فإنها منتنة».

إن كثيرين يدعون إلى العصبية إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال، وليس هذا من هدي الإسلام ومبادئه وقيمه ولا من تعاليم النبيﷺ وأخلاقه الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وخلافاً لما دعا الله

تعالى إليه من المحبة والتعارف والتآلف..

﴿يـا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُـعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١٢).

وإذا كان هذا بين شعوب مسلمة وغير مسلمة فإنها بين المسلمين بعضهـم بعضاً أوجب وآكد. إن التحديات التي تواجه المسـلمين اليوم لتوجب عليهم وتفرض عليهم أن يتوحدوا، فالوحدة فريضة إسلامية..

هذا باختصار شديد أهم الدعائم أو القواعد التي أقيمت عليها وحدة المسلمين، لننتقل إلى مثل عملي رائع لها نعيشه في حياتنا كما عشناه في ماضينا ونعيشه في مستقبلنا حتى يحكم الله تعالى وهو خير الحاكمين:

إنه فريضة الحج المباركة!

فقد جاءت شـعائر الإسـلام لتؤكد معنى الوحدة، ففي الصلاة يتعلم المسـلمون معنـى الوحدة ومعنى الجماعـة ومعنى الصف الواحد المتآلف المسـتوي، والاسـتقبال الواحد لهدف وحيد حيث يتجه المسلمون على مدار اليوم والليلة إلى قبلة واحدة، فالمسلمون في الشمال والجنوب والشرق والغرب كلهم يتجهون إلى الكعبة:

﴿..فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ مـا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ..﴾(١٣).

وهكـذا في كل الواجبات العبادية وفي المسـتحبات وفي التوجه

بالدعاء وفي دفن موتى المسلمين وفي ذبائحهم.. إنه التوجه الخالص نحو القبلة، الكعبة المباركة.

ثم كان الحج إلى بيت‌الله الحرام إلى المسجد الحرام إلى حيث الكعبة المباركة الجامعة، ليتخذ المسلمون منها ومن أم القرى مكة مكاناً لأداء عباداتهم ومناسكهم ومواطن لدعائهم ومناجاتهم.. وغدت سوقاً علمياً وتجارياً وميداناً لعقد مؤتمرهم سنوياً للتفاهم والتشاور وتبادل الرأي، وكل ما من شأنه أن يحكم روابط الأخوة والوحدة بين المسلمين..

وما الأذان بالحج إلا دعوة صريحة للوحدة والتآلف والتعاون ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾(١٤).

وشرع لهم من مناسك الحج ما يجمعهم ولا يفرقهم ويجعلهم يتعارفون في عدة أماكن: وهم يطوفون بالكعبة، وهم يسعون بين الصفا والمروة، وهم يتواجدون في عرفات، ثم المزدلفة فمنى والجمرات، وفي أماكن أخرى للزيارة حيث أضرحة الشهداء والصالحين في مكة والمدينة، وعلى رأسها الضريح الطاهر لرسول‌الله صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة وأضرحة أئمة أهل البيت عليهم السلام في البقيع.. وزيارة الآثار الإسلامية الأخرى.. كلها تدعوهم وتدعو الأمة للوحدة والتآزر والتآلف.. وما توحيد الزي بين المسلمين في الحج، إلا وصفة أخرى

تلغي المزايا وتشعر بعظمة الأمة وتمام وحدتها..

حقــاً إنها الفريضة العبادية الوحدوية المباركة الكبيرة، والتظاهرة الإيمانية الحاشدة والتجمع النادر الرائع المتوفر على أطياف وألوان يوحدهم الهتاف الواحد ويجمعهم المنسك الواحد ويحدوهم الأمل الواحــد، وتأخذ بأيديهم الغاية الواحدة وهــي الانقياد إلى الخالق الواحد والالتــزام بأوامره والابتعاد عــن نواهيه وتوحيدهم ضد أعدائهم وشياطين الإنس والجن..

ولعل من أهم أهداف الشــريعة ووظائفها الموكلة إليها من قبل السماء إزاء الساحة المسلمة هو إدخال الأمة عملياً في تجربة التوحيد والوحــدة، توحيدالله تعــالى ووحدة الصــف، لأهميتهما وخطورة التخلّــف عنهما، فجاءت فريضة الحج تجربة عملية وميداناً تطبيقياً لهما، غير مكتفيــة بمجرد الدعوة إلى التوحيــد والوحدة وإلى مجرد الحث عليهما، وفلســفة هذا الأمر، أن الشرك وبالذات الخفي منه يمكن أن يتســرب إلى النفــوس في أي وقت فتفترق الطرق وتضل القلــوب ويقع المحذور في الســاحة بعد أن فقــدت منبع توحيدها وقوتها وسلامة موقفها..

ولعل الآية المباركة: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[١٥] تشير إلى مسألة الشرك الخفي[١٦].

إذن دواعي الفرقــة والاختلاف متوافرة وعلى الدوام فلا بد من اســتمرار مقاومة تلك الدواعي.. ومناسك الحج التي تتكرر سنوياً تعد أقوى عنصر مضاد وناف لأسباب ودواعي الابتعاد عن الدين

وما يأتي تبعاً لذلك الابتعاد من فرقة وتشتت..

فالمشـــاعر والمواقيت والمناسك كالطواف والســـعي والإفاضتين تلغـــي أي مظهر مـــن مظاهر الفرقة والتحـــزب المتأتية من فوارق الجنس واللون والمذهب والانتماء والمكانة السياســـية والاجتماعية ..لتجعل منهم أناســـاً يعبدون‌الله تعالى ويخلصون في عبادتهم وهم يقفون على صعيد واحد وهم على مســـتوى واحد، وتقف السماء منهم على مستوى واحد أيضاً، فلا تفرق بينهم في عطائها وأجرها ورضاها ما داموا على مســـتوى واحـــد في التقوى، وإن تمايزوا فيها تمايزت أجورهم وهم لا يظلمون.

ومن هنـــا نفهم مراد وهـــدف العديد من الروايـــات عن أهل البيـــت عليهم السلام التي جاءت تنص على عدم جـــواز تعطيل الكعبة عن الحـــج وتحث على وجوب إجبار النـــاس على الحج، ويحمل بعضها وعيداً لمن عطله:

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحجال، عن حماد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان علي صلوات‌الله عليه يقول لولده: يا بني! انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناظروا».

وعنـــه، عن أحمد بن محمد، عن محمد بـــن إسماعيل، عن حنان بن سدير، عن أبيه قال: ذكرت لأبي جعفر عليه السلام البيت فقال: «لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا». وفي حديث آخر: لنزل عليهم العذاب.

وعن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عـــن فضالة بن أيوب، عن أبي المعزا، عن أبي بصير ـ يعني المرادي

ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة».

عن محمد بن علي ما جيلويه، عن عمه محمد بن أبي القاسم، عن محمد بن علي الهمداني، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «أما إنّ الناس لو تركوا حج هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا».

وعن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبدالله بن ميمون، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام قال: لاتتركوا حج بيت ربكم فتهلكوا، وقال: من ترك الحج لحاجة من حوائج الدنيا لم تقض حتى ينظر إلى المحلقين».

محمد بن الحسين الرضي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته للحسن والحسين عليهما السلام: «أُوصيكما بتقوى الله ـ إلى أن قال ـ والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا».

محمد بن علي بن الحسين بن بابويه بأسانيده عن حفص بن البختري وهشام بن سالم ومعاوية بن عمار وغيرهم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لو أنّ الناس تركوا الحج لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين»(١٧).

وختاماً:

لا بد لي من أن أذكر بعض معالم التوحيد ـ وهي تتجلى في جميع

العبادات التي تعبدتنا السماء بها ـ في فريضة الحج، التي تعد ركناً عبادياً مهماً من أركانِ الإسلام وهي ما يدور حولها كلامنا:

ـ وهذه المعالم أول ما تبدأ بالنية ويشترط فيها أن تكون خالصة لله عز وجل، وعندئذ تكون بعيدة عن الرياء والجاه انطلاقاً من الآية: ﴿وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أطلقه في بداية مناسكه:

«اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة».

ـ الإحرام، وهو معلم توحيدي ظاهر للجميع، فالكل في لباس واحد عبارة عن قطعتين إزار ورداء أبيضين لا غير، حتى لا يتميز غنيهم ولا سيدهم ولا زعيمهم ولا عالمهم عن غيرهم، كلهم جميعهم سواء، إنه مظهر عملي لتوحيدهم وإشعارهم بسواسيتهم..

ـ التلبية، وهي كما قال النبي صلى الله عليه وآله:

«لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

وقد جاء صريحاً في حديث جابر الأنصاري في صفة حج النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «فأهلّ بالتوحيد».

وهذه التلبية النبوية فيها تحقيق التوحيد، حيث تجعل الله واحداً لا شريك له، بخلاف تلبية المشركين في جاهليتهم حيث كانت تلبيتهم تتضمن الشرك بالله عز وجل إذ كانوا يقولون: «لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

ـ توحيد العبادة في الحج، فقد أمرت الشريعة بالطواف بالبيت

سبعة أشواط، انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

ـ ركعتا الطواف، فإنه يستحب للحاج أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ﴾ وفي الثانية يقرأ سورة الإخلاص، لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية، ففي السورة الأولى البراءة من دين المشركين وإفراد الله بالعبادة، وفي السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه ويخلص له العبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه من خلال هذا الدرس العملي العظيم.

ومن المعالم التوحيدية :السعي بين جبلي الصفا والمروة سبعة أشواط ذهاباً وإياباً، وهي بحق مسيرة إيمانية واضحة:

﴿إِنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِاللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(١٨).

ويسن للساعي أن يقول في بداية كل شوط كلمة التوحيد:

«لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير..» ويقرأ الآية: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ..﴾.

«الحج عرفة» كما ورد، والوقوف في عرفات هذا الوقوف المهيب وفيه أعظم الذكر الذي يقال في يوم عرفة:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«خير الدعاء دعاء عرفــة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلاالله وحده لا شــريك له، له الملــك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

في هــذا المجمع العظيم وفي هذا اليــوم المبارك، يأتي هذا الإعلان الصريح لتوحيــد العبادة من خلال النطق بهذه الكلمة وتكرارها؛ لأجل أن يستشــعر الحاج مدلولها ويعمــل بمقتضاها فيؤدي أعمال حجه خالصة لله من جميع شوائب الشرك.

وهكــذا الوقوف في المشــعرالحرام وفي منى طيلــة أيامها وعبر مناسكها، وما شرعهالله في يوم العيد وأيام التشريق من ذكره وحده، قال تعالى:

﴿وَاذْكُرُواالله فِى أَيَّامٍ مَعْــدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُواالله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١٩).

وذكــرالله في هذه الأيام يتجلى في الأعمال العظيمة التي تؤدى في أيام منــى، من الحلق أو التقصير وذبح الهدي ورمي الجمار الثلاث وأداء الصلوات في هذه الأيام المباركة..

قــال تعالى: ﴿لِيَشْــهَدُوا مَنافِعَ لَهُــمْ وَيَذْكُرُوا اسْــمَاللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَــةِ الأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾(٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَالْبُــدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَــعائِرِاللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْــمَاللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَــإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُهــا فَكُلُوا مِنْها

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢١).

ومن هنا يتعلم المسلم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله؛ لأن الذبح عبادة وإتيان العبادة لغير الله يعدّ شركاً، ولهذا قال جل علاه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾(٢٢).

وكم يحمل هذا المشروع من بر للمحتاجين وإعانة للمستضعفين ومعروف موصول يسدى إليهم، وكم في هذا العمل الواسع الضخم من تأليف للقلوب، وتقريب للنفوس، وتطييب لها، قربت من الأماكن المقدسة أو بعدت عنها!..

كل تلك من أصول ودعائم التوحيد الذي يستتبعه توحيد الطاقات والصفوف والمواقف، وكل هذه المعالم والمشاريع والأعمال التي تستتبعها الآثار الطيبة التي تتركها على الساحة المسلمة في حاضرها ومستقبلها.. كلها جميعاً تعد مشاريع جميلة جليلة تثمر قلوباً زكية ترفض البغضاء والحقد.. ونفوساً أبية قادرة على البناء والتطور والتوحد..

حقاً إن الحج جاء كما وصفته سيدة النساء الزهراء عليها السلام تشييداً للدين: «وجعل الحج تشييداً للدين..»(٢٣).

حقاً إنها فريضة ربانية هادفة رائدة، مائدتها زاد دائم، وعطاؤها عطاء غير مجذوذ!..

الهوامش

---

١) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.
٢) آل‌عمران: ١٠٣.
٣) الفتح: ٢٩.
٤) الحجرات: ١٠.
٥) آل‌عمران: ١٠٠.
٦) النساء: ٣٦.
٧) المؤمنون: ٥٢.
٨) آل‌عمران: ١٩.
٩) الأنعام: ١٥٣.
١٠) آل‌عمران: ١٠٣.
١١) الحجرات: ١٣.
١٢) الحجرات: ١٣.
١٣) البقرة: ١٤٤.
١٤) الحج: ٢٧ ـ ٢٨.
١٥) يوسف: ١٠٦.
١٦) انظر: الشيخ جوادي آملي في وجيزة في أسرار الحج: ١٢٩.
١٧) انظر كتاب وسائل الشيعة، الحر العاملي رحمه‌الله تعالى ١١: ٢٠.
١٨) البقرة: ١٥٨.
١٩) البقرة: ٢٠٣.
٢٠) الحج: ٢٨.
٢١) الحج: ٣٦ ـ ٣٧.
٢٢) الكوثر: ٢.
٢٣) ابن طيفور: بلاغات النساء: ٢٨.